المتنبي شهيداً

بقلم: يوسف سامي اليوسف

بلغت الثقافة العربية ذروة قوسها في أواسط القرن الرابع الهجري، أو العاشر الميلادي، يوم كان النفري، ملك النثر، والمتنبي ملك الشعر، في أوج نشاطهما الكتابي. وقد امتدت هذه الذروة حتى شملت المعري الذي ازدهر في أواخر ذلك القرن نفسه وأوائل القرن الذي تلاه. وعندي أن حركة الشعر العربي، منذ امرئ القيس، كانت تتطور لكي تنتج هذين الشاعرين العظيمين اللذين كابد كل منهما اغتراباً مريراً، بل ذاق الأمرين خلال حياته المضطربة. ومما هو بليغ في دلالته أن يكون المعري قد اعترف جهرة بالمتنبي أستاذاً له، وان يكون قد أعجب به أيما إعجاب. ففي البداهة أن هذا الاعتراف ينطوي ضمناً على أن ثمة صفات مشتركة كثيرة بين الرجلين، لعل مكابدة الاغتراب أن تكون أبرزها جميعاً.

أما على المستوى السياسي، فقد كان القرن الرابع قرن تغيرات تاريخية عميقة، إذ أخذت الدولة العباسية بالاضمحلال وفقدان السيطرة على أطراف العراق، بل حتى على بغداد نفسها، وهي التي دمرتها الفتن الطائفية وهيأتها للسقوط في يد هولاكو بعد المتنبي بثلاثة قرون. فلقد زارها المقدسي زهاء سنة 970م وكتب قائلاً: «أكثرها خراب». أما الدولة الفاطمية الناشئة في شمال أفريقيا فلم تستطيع أن تفعل الكثير ضد الروم الذين أخذوا يهاجمون سوريا على نحو شرس جداً، بقيادة الإمبراطور نقفور، فاحتلوا حلب وأنطاكيا، ثم هجم باسيل الثاني ووصل إلى سهل البقاع. ولم ينقذ القدس من براثنه سوى ثورة قام بها البلغار في البلقان فانكفأ راجعاً ليحمي ملكه.

وأما سيف الدولة فقد أثبتت إمارته الصغيرة أنها لا تملك أن تواجه إمبراطورية ضخمة الموارد البشرية والاقتصادية، وحيدة ومن دون حلفاء. فكان سقوط حلب بيد نقفور في كانون الأول سنة 962 كارثة مروعة منيت بها بلاد الشام.

وفي هذا الجو المعكور، كان المتنبي يتحرك ويبذل قصارى جهده لينجح في الحصول على موطئ قدم يصلح للتوسع في جميع الاتجاهات. ولكن ثورته التي خاضها في البادية حول سلمية قد باءت بالإخفاق. فألقت السلطة القبض على ذلك الشاعر الناشئ وزجته في السجن. ولكنه نال شفقة المسؤولين في حمص، فأفرجوا عنه نظراً لصغر سنه، إذ كان في السادسة عشرة من سنوات عمره.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإن المرء يتعذر عليه أن يؤسس أساساً متيناً لاستيعاء شخصية المتنبي وشعره دون الانتباه إلى هذه الحقائق الثلاث التي أراها نسيج هوية أبي الطيب:

1- الاغتراب، أو عدم التكيف مع المجتمع.

2- احتقاره لعصره المنحط واحترامه لنفسه حتى درجة الجنون.

3- تطلعه إلى الثورة واستقلاب التاريخ.

ومما هو صادق في ذهني أن هذه العناصر كلها هي ثلاثة وجوه لمعضلة واحدة لا تقبل التجزئة إلا ابتغاء تسهيل البحث والدراسة.

يقول أبو الطيب صراحة:

ما مقامي بأرض نخلة ... إلا كمقام المسيح بين اليهود

أنا في أمة، تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود

ففي هذا الموضع يذكر المتنبي اغترابه جهرة، ولكن هذا الشاعر كثيراً ما يعبر عن اغتراب باهظ على نحو غير مباشر:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا، اوعدواً مداجيا

فهل هنالك اغتراب بعد هذا الاغتراب المرير الذي يكابده ذلك الروح الأهيف الاملد، وهو من لا يجد صديقاً، ولا حتى عدواً يداهنه أو يجامله؟ ثم إنه يخفي اغتراباً ثقيل الوطأة حتى حين يقول بيتاً كهذا البيت:

ولو برز الزمان إلي فرداً لخضّب شعر مفرقه حسامي

أو هذا:

على قلق كأن الريح تحتي أُقلّبها يميناً أو شمالاً.

وهذا أيضاً:

أتى الزمانَ بنوهُ في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

ولا ريب في أن المعري قد راح يقلد هذا البيت حين قال:

تمتع أبكار الزمان بأيده وجئنا بوهن بعدما خرف الدهر

ومما هو ناصع أن بيت المتنبي أسلس وأكثر استقامة وأسهل على اللسان من بيت المعري.

وعندي أن اغتراب المتنبي لم يكن نتاجاً لمرض نفسي، بل هو رد فعل ذاتي على زمن متخشب راح الانحطاط يلتهم اناسه دون أن يشعروا بما يجري لهم. وهذا هو بالضبط ما تعنيه عبارة «مفتحة عيونهم نيام»، وهي التي سوف تأتي في مقبوس طويل عما قليل. ولأن أناس عصره صغار في نظره فقد ازدرى ذلك العصر وبجّل نفسه. إن تنفّج المتنبي الذي يبلغ حد الخنزوانة أو جنون العظمة، في قليل من الأحيان، هو نتيجة لاغتراب مرير. فحين يقول:

وكل ما خلق الله وما لم يخلق محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

فإن هذا القول يتبدى للوهلة الأولى وكأنه مرض أو تعبير عن المرض، ولكنه في صلب الأمر رفض لعالم زائف تلتهمه الملوك الذين يكرههم الشاعر كما يكره الناس الجرب. وربما جاز لي أن أزعم ما فحواه أن الشطر الحي من شعر المتنبي هو نتاج لوطأة شعوره بالاغتراب، أو لشدة تلك الوطأة. فلعل من شأن هذا الشعور المرير أن يحرّض المغترب على الإبداع. وحتى المغتربون عن الوطن تجدهم، في الغالب الأعم، ناجحين في الحياة العملية، وذلك من باب الحاجة إلى تعويض أيضاً.

أما احتقاره لعصره، وهو أمر وثيق الصلة باغترابه وسوء تكيفه مع الواقع الفاسد، فقد عبر عنه بقوة وكثرة في الجزء الأول من ديوانه. يقول:

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكنْ معدن الذهب الرغام

أرانبُ غير أنهم ملوك	مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحّر القتل فيها	وما أقرانها إلا الطعام
وخيل ما يخر لها طعين	كأن قنا فوارسها ثُمام

إنه لقول فصيح ذاك الذي يصور به الشاعر إنسان عصره وهو يتبارز مع صحن طبيخ، أو يقتله فرط تناوله للطعام. ومما يستهجنه الرجل أن الخيل في زمنه لا يخر لها أي فارس مقتولا، فكأنه يتساءل عن جدوى وجود هذه الخيل التي يحمل فرسانها رماحاً من ثُمام، وهو نبات هش ضعيف.
وقد عاش أبو الطيب ثائراً متمرداً طوال النصف الأول من عمره الذي لم يدم سوى خمسين سنة (915-965م)، وكانت غايته شديدة الوضوح، وهي استقلاب التاريخ، وتحويل الأرض إلى مكان لائق بكرامة الإنسان، أو إلى مضافة من شأنها أن تستضيف الروح. ولقد رأى سيف الدولة بوصفه الأمير الذي يكافح من أجل المشروع الاستقلابي الكبير. وحين اختلف مع الفارس الحمداني، فقد رحل إلى مصر علّه أن يحصل على ولاية صيدا. وربما فكر بأنه سوف ينطلق من تلك الولاية إلى بقية الدنيا. ولكن كافور لم يكن ذلك المغفل الذي تنطلي عليه المخاتلة أو المخادعة. وربما جاز لي القول بأن الرائية التي تبدأ بهذا البيت:

أُطاعن خيلاً من فوارسها الدهر	وحيداً، وما قولي كذا ومعي الصبر؟

هي أجود قصائده المعبرة عن ثورته وطموحه إلى تغيير العالم. وقد يلاحظ المرء أن كلمة "وحيداً" التي تتصدر الشطر الثاني من هذا البيت هي إشارة صريحة إلى شعوره بالاغتراب والعزلة في هذه الدنيا التي تتألف من حصار مفروض على الروح. ولقد جاء في هذه الرائية:

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة	فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى	لك الهبوات السود والعسكر المجر
وجنبني قربَ السلاطين مقتُها	وما يقتضيني من جماجمها النسر

فلا مرية في أن الرجل ثائر على كل سلطة ورافض لكل حكومة. وما السلاطين في نظره سوى كائنات لا تصلح إلا طعاماً للسباع والطيور الجارحة. ومثل هذا القول لم ينطق به أي شاعر عربي منذ امرئ القيس حتى العصر الحديث. ويلوح لي أن إخفاقه في مضمار الثورة هو الذي حولّه إلى تنديدي أو ازدرائي متطرف. وهذا هو المتنبي بالضبط: يحتقر عصره ويحترم نفسه. ولأنه ساخط على كل حطة ونذالة، ومتشبث بكل ما هو أصيل ونبيل، فإنه يوقظ في قارئه غريزة العظمة والإباء. ولعل هذه المزيّة أن تكون السبب الأبرز بين جميع الأسباب التي جعلته مقروءاً منذ زمانه وحتى زماننا.
إنه شاعر القوة والكرامة والأنفة، شاعر الثورة والحرية، بل إنه تجسيد لإرادة الرفض، حتى وإن كان في سلوكه أو في شعره ما يبرهن على نقيض ذلك. ومما هو ناصع أن لديه صنفاً من أصناف التوازي بين علو الأنا وعلو اللغة. فالأنا الباذخة لا بد لها من لغة باذخة شديدة القدرة على اجتذاب الناس. وهذا يعني أن جودة أسلوب المتنبي هي سبب وجيه من أسباب انتشاره واستمراره حتى اليوم.
ولقد عبر شعوره بالأنفة عن فحواه بهذا البيت النادر حتى في شعر المتنبي نفسه:

وإني لمن قوم كأن نفوسهم	بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

ومما يدل على أن المتنبي هو شاعر الأنفة والعظمة أن الكثير من شعره يوحي بأن في داخله جبلاً وسيفاً وأسداً وحصاناً وبحراً وشمساً، وما إلى ذلك من الكائنات الدالة على القوة والشموخ. فهذه الموجودات كلها ترمز إلى العلو والرغبة في حيازة القوة، أو حتى على وجود القوة سلفاً داخل روح الشاعر. كما لا يخفى أن ثمة في مركز روحه صورة لإنسان متفوق عبّر عنها في عدة مواطن من شعره، ولا سيما حين راح يزدري كل شيء وكأنه شعرة في مفرقه.

ومما هو معلوم أن المتنبي رحالة جوال غير مستقر، وعلاقته بالفلوات ووحوشها هي علاقة يندر أن تجد لها مثيلاً في الشعر العربي بأسره. وقد لا أجافي السداد إذا ما زعمت بأنه لا يبحث عن شيء قدر ما يبحث عن نفسه. وفي تقديري أن هذا الارتحال الكثير هو أمارة قلق واضطراب، دون أدنى ريب، ولكنه أمارة اغتراب قبل كل شيء. فقد يتعذر على الفهم النقدي أن يستوعب المتنبي إلا بوصفه مغترباً كبيراً لا يبذه أحد أولا يدانيه أي شاعر آخر بهذه السمة، إلا المعري، أو رهين المحبسين، وحده. ولهذا يصح الذهاب إلى أن أجود شعره وأنفسه هو ذلك الشطر الذي كرسه للتعبير عن اغترابه وضياعه في عالم رآه منهكا أو مستهلكا إلى الأبد.

وربما جاز لي أن أزعم بأن وطأة الاغتراب ذات الشدة الباهظة والرازحة على روح الشاعر هي العامل الأكبر في تأجيج حساسيته. والحساسية، لا ريب، هي الينبوع الذي يتدفق منه كل شعر وفن وأدب. وقد يجوز الذهاب إلى أن زخم حساسية المتنبي هو ما جعله حاد البصيرة وشديد القدرة على استيعاء الأشياء في تألقها، بل حتى في توهجها واشتعالها. فمما لا يخفى على المستأني حين يقرأ ديوان المتنبي أن الأفعال الدالة على النظر والرؤية شديدة التواتر في ذلك الديوان. كما أن كلمة "العين" والألفاظ الأخرى الدالة على هذا العضو البصري النفيس كثيرة التواتر في الديوان نفسه أيضاً. ومما هو وثيق الصلة بهذه الحقيقة أن خيال المتنبي قد جاء من الفصيلة البصرية. فالصورة في شعره كثيراً ما تكون برسم مقلة العين حقاً. وإن لك أن تنظر إلى هذا البيت الذي قاله في مدح رجل يسمى علي بن أحمد الأنطاكي:

وما قلت من شعر تكاد بيوته
إذا كتبت يبيضّ من نورها الحبر

فها هو ذا قد أحال سواد المداد إلى بياض تراه العين وتستمتع به أو ترتاح لرؤيته. وبالبداهة، فإن رجلاً حاد البصر وثاقب البصيرة مثل أبي الطيب لا بد له من أن يكون مغترباً أو روحاً يلتهمه اضطرابه وتفترسه غريزته الخاصة. ومما يؤكد حضوره وانتباهه الشديدين، وكذلك حدة بصره وبصيرته أنه رأى الواقع كما هو تماما حين قال:

بكل ارض وطئتها أمم ُترعى بعبد كأنها غنم

وهذا قول لا وجود لمثله في الأدب التراثي كله.

*** * * ***

حين أدرك المتنبي أن إقامته في مصر لا طائل منها ولا جَداء، فقد هرب إلى العراق هذه المرة، وذلك سنة 350هـ /961م، أي بعد ما أقام أربع سنوات في وادي النيل. وبعد سنتين أتاه ابن سيف الدولة إلى الكوفة وطلب منه أن يرجع إلى حلب استجابة لرغبة أبيه. وكانت حلب قد منيت بكارثة مروعة على أيدي الروم في السنة السابقة، أي سنة 351هـ / 962م. ولكن الشاعر لم يسافر إلى حلب قط، بل ظل مقيماً في مسقط رأسه، واكتفى بأن أرسل إلى سيف الدولة قصيدة لامية متميزة جداً، وهذا هو مطلعها:

ما لنا كلنا جو، يا رسول؟ أنا أهوى وقلبك المتبول

وفي سنة 353 هـ / 964م، أقام في بغداد لبضعة أشهر. وهناك اختلف مع المهلبي، وزير بغداد البويهي، وهو عجوز ماجن مشهور بأنه خبير بالمنافسات والدسائس. ولقد حرض عليه بعض الشعراء فراحوا يهجونه ويشتمونه. كما أن السلطان البويهي معز الدولة كان يكره المتنبي ويحقد عليه. ومع ذلك، فلست أرجح أن يكون واحدٌ من هذين الرجلين قد اغتال المتنبي، كما لا أرجح أن يكون كافور الاخشيدي هو من اغتاله بسبب الداليّة المشهورة التي هجاه بها.

ولكن ثمة احتمال آخر، وهو الأقوى بين جميع الاحتمالات. ففي أواخر سنة 353هـ /964م، هجم القرامطة على مدينة الكوفة يبتغون نهبها، فتصدى لهم أهلها وحاميتها وطردوهم. وكان المتنبي وغلمانه مع المنافحين عن المدينة. وحين هجم القرامطة مرة ثانية، فقد أسهم أبو الطيب وعبيده في صدهم عنها من جديد. وأرسلت الدولة البويهية من بغداد قائداً يسمى دلير، ومعه قطعة صغيرة من الجند، وعلم ذلك القائد بالجهد الذي بذله المتنبي في مكافحة القرامطة، فكان أن قدم له هدية نفيسة مكافأة على بسالته وإخلاصه.

ومن المحتمل أن يكون فاتك الأسدي، قاتل المتنبي، قرمطياً يترأس كتيبه من القرامطة. ففي الحق أن المراجع التراثية تشير إلى أن عدد الذين هاجموا المتنبي وقتلوه قد كان كبيراً جداً وأن ضخامة هذا العدد مثيرة للريب، ومن شأنها أن تدفع الذهن إلى الظن بأن القرامطة هم الذين قتلوا الشاعر. فمن غير المحتمل أن يكون هذا الجمع الغفير من الرجال عصابة من قطاع الدروب وحسب.

أما ضبة بن يزيد العتبي، وهو ابن أخت فاتك، فقد كان قرمطياً يتحصن في حصن للقرامطة لا يبعد كثيراً عن الكوفة. وحين هجاه المتنبي، إن كان قد هجاه فعلاً، فإنه ما فعل ذلك إلا من باب التصدي للقرامطة الذين أساؤوا كثيراً لأهل العراق.

إذن، لم يبق سوى احتمالين: إما أن يكون الأسدي قد طمع بالأموال التي جلبها المتنبي من إيران بعدما مدح ابن العميد في أرّجان، وعضد الدولة في شيراز، وإما أن يكون قد فتك بالشاعر لأنه صار واحداً من ألد أعداء القرامطة. وعندي أن الاحتمال الثاني هو الأرجح والأقوى.

ومما هو جدير بالانتباه أن المتنبي حين نزل ضيفاً على القاضي أبي النصر الجبلي في مدينة واسط، أثناء عودته من بلاد فارس، فإن مضيفه قد حذره من فاتك وعصابته التي راحت ترصده وتنتظر إيابه. ولكن المتنبي لم يأبه للأمر، وذلك لاعتقاده بأن الهجاء لا يقتل أحداً، وقد فاته أن الأسدي سوف يستحيل إلى وحش كاسر إذا كانت قيادة القرامطة هي التي اتخذت قرار الاغتيال. وفي الحق أن تلك العصابة استطاعت أن تقتل الشاعر وابنه وعبيده، بالقرب من دير ُقنى، وذلك في أواخر رمضان سنة 354 هـ / أواخر أيلول سنة 965م.

ومما هو معلوم أن ابن جني، صديق المتنبي الحميم، قد رثى المغدور وطالب بمعاقبة الجناة، ولكن أحداً لم يتحرك قط. كما رثاه شعراء آخرون وطالبوا بما طالب به ابن جني ولكن دون جدوى. لم يكن من قبيل الصدفة أن تسكت حكومة بغداد عن تلك الجريمة الشديدة الشناعة، ففي اللامية التي أرسلها المتنبي إلى سيف الدولة قبل سنتين، ثمة اتهام صريح لتلك الحكومة بأنها لا تختلف عن الروم في شيء. يقول الشاعر لسيف الدولة:

لو تحرفتَ عن طريق الأعادي ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما أنه الحقير الذليل
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل؟

وقد كنّى بالسدر عن مصر، وبالنخيل عن العراق. كما أنه أهان حكومة بغداد وحكومة الفسطاط على نحو جهري حين وصفهما بالحقارة والذل.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإن الشعر العربي التراثي قد خسر بمقتل المتنبي واحداً من أعظم شعرائه، إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق. وفي الحق أن ذلك الفارس الذي خذله عصره بعدما اضطهده كثيراً، قد خر شهيداً منافحاً عن الحقيقة، أو عن رفضه للزيف السائد في هذه الدنيا التي قلما يربحها إلا أهل النذالة والخساسة. فلا ريب في أن خاتمة المتنبي لا تقل عن كونها مأساة مروعة، ولكنها، مع ذلك، تنطوي على مفارقة من شأنها أن تستثير التأمل الفلسفي. وخلاصة هذه المفارقة، أو المهزلة، أن الرجل الذي قتل «مالئ الدنيا وشاغل الناس»، أو الشاعر الذي تحرص الملوك على أن تخطب وده وأن تنال رضاه، إن ذلك القاتل «لا تُعرف قرعة أبيه من أين»، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية.